المبحث الثالث

فاعلية الإفادة

المبحث الثالث

فاعلية الإفادة

عنى البصراء بالأدب منذ أرسطو ببحث ظاهرة شاعت في صـــور الإبداع الأدبي، وهي : إفادة الشاعر والناثر ممن سبقهما أو عاصرهما من الشعراء والنثراء، وذلك بأخذ بيـــت شـــعر أو تعبيـــر بكاملـــه، أو باستيحائه، أو بالتصرف الفني فيه على نحو جزئي أو كلي، وقد تناول أرسطو هذه الظاهرة فذكر "أن هناك صوراً تعبيرية قديمة يســـتخدمها الشعراء نقلاً عن نظرائهم الأقدمين"[1] .

وربما اعترف الأديب المستفيد بما أخذه في شجاعة، مثل هـــوارس Horass الذي بيّن أنه قلّد "أركيلكوس" Archilochus وألكيوس[2] Alcaeus وغيرهما، وأن بعض قصائده ليست إلا مجرد نسخ يونانية".

ومن المؤكد أن "الاعتراف الصريح" بالأخذ يسهل مهمة فاحص هذه الظاهرة، لأنه يأخذ بيدنا ويضعها مباشرة فوق المصدر الذي أفاد منه، وأن صمت الآخذ عن ذلك أو نكرانه يصعب من هذه المهمة .

---

[1] د. محمد مصطفى هدارة، مشكلة السرقات في النقد العربي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١٩٧٥، ص ١١ .

[2] السابق، ص ١٣ .

وقد لاحظ دارسو هذه الظاهرة أنها كانت أكثر شيوعاً في العصور القديمة منها في العصور الحديثة، ويرجع ذلك إلى سببين، هما : "عدم وجود قوانين تحفظ حقوق التأليف والنشر"[1]، وجهل القراء بالنتاج الأدبي المأخوذ أو المستفاد منه .

وفيما يتعلق بموروثنا النقدي العربي، فإن بعض الشعراء كانوا يغيرون على أشعار غيرهم خاصة المقلِّين فيهم على نحو ما صنع زهير بن أبي سلمى مع قراد بن حنش . وفي ذلك يقول ابن سلام "فحدثني أبو عبيدة قال : كان قراد بن حنش من شعراء غطفان، وكان قليل الشعر جيدة، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه فتدعيه، منهم زهير بن أبي سلمى ادعى هذه الأبيات[2] :

إن الرزية، لا رزية مثلها ما تبتغي غطفان يوم أضلت

إن الركاب لتبتغي ذا مرة بجنوب نخل إذا الشهور أحلت

ولنعم حشو الدرع أنت لنا إذا نهلت من العلق الرماح وعلت

ينعون خير الناس عند كريهة عظمت مصيبتهم هناك وجلت[3]

---

(1) السابق، ص ١٣ .

(2) ديوانه، ص ١٦٣، ١٦٤، الرزية والرزينة – المصيبة ، لأنها ترزؤ المرء أي تأخذ منه ما يعز عليه وأصل الشيء = إذا ذهب فضاع، يقول : إن الذي خرجت تطلبه غطفان، فقده أعظم الفقد" هامش الطبقات، ص ٧١٤ .

(3) طبقات فحول الشعراء، ص ٧٣٣ – ٧٣٤، مرة = قوة . أحلت الشهور = صارت حلالاً أي خرجت من الأشهر الحرم إلى شهور الحل . حشو الدرع = لابسه . نهل = شرب أول شربة . على شرب الشربة الثانية بعد الأولى . في الديوان :

يتعين خير الناس عند شديدة عظمت مصيبته هناك، وجلت

وعلى نحو ما صنع طرفة بن العبد مع قول امرئ القيس في بيته[1]:

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

فقد أخذه طرفة فقال [2]:

وقوفاً بها صحبي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وعلى نحو ما صنع لبيد مع قول طرفة في بيته :

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد

فقد أخذه لبيد فقال :

تشن خمائل الدهنا يداه كما لعب المقامر بالفيال[3]

وقد عبر حسان بن ثابت عن شيوع هذه الظاهرة في أواخر العصر الجاهلي وصدر الإسلام، وذلك في موطن نفي السرقة عن نفسه فقال[4]:

لا أسرق الشعراء مانطقوا إذ لا يخالط شعرهم شعري

---

[1] ديوانه، ص ٩ .
[2] ديوان، ص ٣٠ .
[3] الشعر والشعراء، ص ١٩٧ .
[4] ديوانه، ص ١٨٩ .

وإذا كان البصراء بالشعر في تلك الفترة قد أدركوا التشابه بين بعض الأبيات وبعضها الآخر أو بين شعراء سابقين وشعراء لاحقين لهم في مواضع من هذه القصيدة أو تلك، فإن العهد الأموي قد شهد توسعاً في بحث هذه الظاهرة . فقد روى ابن بشير المديني أن الشاعر الأموي الأخطل (-٩٢هـ) قد قال لي : " كيف علمك بالشعر؟، قلت : رويت. فأنشدني قصيدته"[١] :

صرمت حبالك زينب ورعومِ وبدا المجمجم منهما المكتوم

فلما انتهى إلى قوله[٢] :

حتى إذا أخذ الزجاج أكفنا نفحت فأدرك ريحها المزكوم

قال : ألست تزعم أنك تبصر الشعر ؟ قلت : بلى . قال : فكيف لم تشق بطنك فضلاً عن ثوبك عند هذا البيت ؟ قلت : قد فعلت عند البيت الذي سرقت هذا منه . قال : وما هو ؟، قلت بيت الأعشى :

من خمر عانة قد أتى لختامها حول تفض غمامة المزكوم

فقال : "أنت تبصر الشعر"[٣] . فملاحظة ابن بشير المديني، وتسليم الأخطل بها قد بينا أن ثمة إفادة قد تمت على يد الأخطل من بيت

---

[١] ديوانه : تحقيق مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٠٤، وفيه :
(صرمت أمامة حبلها ورءوم وبدا المجمجم منهما المكتوم) ، ص ٣٠٥ .

[٢] وفي الديوان (وإذا تعاورت الأكف زجاجها نفخت فنال رياحها المزكوم) ، ص ٣٠٥ .

[٣] الموشح، ص ١٨٩- ١٩٠ .

الأعشى، ولكن الأخطل لم يستطع إخفاء إفادته فدل هذا الإخفاق على ما أخذ وأفاد، ولذا لم يكن له حق امتلاكه والاختصاص به فقد تساوى المعنيان، وقل مستوى لفظ الأخطل، بينما برز المعنى المأخوذ وظهر بوضوح .

ومعنى هذا أن المقياس النقدي الذي اعتمد عليه المديني في هذه الملاحظة هو "ضرورة تصرف الآخذ في المأخوذ" حتى يمكن قبول عمله الجديد .

وفي إطار هذا المقياس نظر أبو جهمة الجندعي في أخذ كثير بن عبد الرحمن (-١٠٥ أو ١٠٧هـ)، فقد مر به بالروحاء وهو ينشد قوله :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

فقال له : ويحك يابن أبي جمعة، منذ متى قيل هذا الشعر؟ قال : منذ زمان طويل . قال : فهذا يقوله صاحبنا أمية بن الأسكر، قال : هو ذاك يا ابن أبي جهمة وأنا أحظى به منه"[١] . ويذكر ابن رشيق أن الشاعر الذي أخذ منه كثير هو "قيس بن عمرو النجاشي" – المولود في الجاهلية والمتوفى بعد سنة ٤٠هـ بقليل[٢] – وذلك في قوله :

---

[١] الموشح، ص ٢٠٦ .

[٢] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة : د. عبد الحليم النجار، دارالمعارف، ١٧٣/١ – ١٧٤.

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمت بها يد الحدثان

والروايتان توضحان أن كثيراً قد أفاد في بيته ممن سبقه، وإن كانت رواية ابن رشيق قد نصت على المأخوذ كما نرى، وبينت أن هذه الإفادة قد تمت بوسيلة "الاهتدام"؛ فقد اهتدم كثير قول النجاشي بأن "أخذ القسم الأول واهتدم باقي البيت فجاء بالمعنى في غير اللفظ"[1]، فأحدث بذلك شيئاً من التصرف الذي يحسب له .

وقد كشف النقاد أيضاً في حدود هذا المقياس عن أن كثيراً قد أخذ قوله :

تقول مرضنا فما عدتنا وكيف يعود مريض مريضا

من قول نابغة بني تغلب :

بخلنا لبخلك قد تعلمين وكيف يعيب بخيل بخيلا

وقد سمى النقاد فيما بعد هذا النوع من الأخذ بـ "الموازنة"[2]، حيث وازن كثير في القسم الآخر من بيته وقول النابغة كما نرى .

ويرى الزبير بن بكار أن كثيراً قد أفاد من جميل بن معمر أيضاً . فقد قال : "حدثني من له علم وثبت من قريش، فيهم عمى مصعب بن عبد الله، عن جدي عبد الله بن مصعب أن قول جميل :

---

[1] العمدة، ٢٨٧/٢، و د. بدوي طبانة : السرقات الأدبية، طبعة دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٤، ص ٨٥ .

[2] العمدة، ٢٨٧/٢.

أفق قد أفاق العاشقون وفارقوا الهوى واستمرت بالرجال المرائر

وهبها كشيء لم يكن أو كنازح به الدار أو من غيبته المقابـــر

وهما في قصيدته التي يقول فيها :

أألحق إنْ دار الرباب تباعـدتْ أو إن شكَّ ولّيٌ أن قلبك طائـر

قال الزبير : فأغار كثير على البيتين، فأدخلهما في قصيدته التي أولها:

عفا واسط من أهله والظواهر[1]

ولكن الذي زاد من اهتمام العلماء بالشعر والشعراء النقاد بهذه الظاهرة هو الفرزدق (-١١٤هـ)، بسبب ما كان يصنعه من أخذ صريح، أو تأثر بشعر لم ينجح في ستره وإخفائه، حتى لقد عقدت له محاكمة ذات مرة. فقد روى أبو عبيدة : "كان الفرزدق يجتلب القصيدة، ويجتلب المعنى، فجاء رجل من قيس إلى محمد بن رباط، فاستعدى على الفرزدق – وقد سلم الفرزدق ثم خرج – فقال محمد : ادعوا الفرزدق، فجاء . فقال الفرزدق : سل هذا فيم يستعدي علي . قال : غلبني على قصيدة عمي الأعلم . فقال : أشهدكم أني قد رددتها . فقال محمد : نحوهما"[2] . ولذلك تتبعه علماء البصرة مثل أبي عمرو

---

[1] الموشح، ص ٢٠٧ . الولي = القرب والدنو .

[2] السابق، ص ١٥٣ .

بن العلاء الذي قال برواية الأصمعي : "لقيت الفرزدق في المربد فقلت: يا أبا فراس، أحدثت شيئاً ؟ قال . فقال : خذ . ثم أنشدني"[1] :

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس

قال : فقلت : سبحان الله، هذا للملتمس . فقال : اكتمها، فلضوال الشعر أحب إلي من ضوال الإبل"[2] . وفي رواية أخرى لأحمد بن أبي طاهر: كان الفرزدق يصلت[3] على الشعراء، ينتحل أشعارهم، ثم يهجو من ذكر أن شيئاً انتحله أو ادعاه لغيره، وكان يقول : ضوال الشعر أحب إلى من ضوال الإبل، وخير السرقة ما لم تقطع فيه اليد"[4].

ويظهر من الروايتين أن الفرزدق، كان يعترف صراحة بما أخذه من أشعار غير معروفة أو ليست كثيرة التردد على مسامع الناس، ولكنه في نهاية الرواية الثانية يطرح مسوغاً للسرقة ليمكن للسارق أو الآخذ أن يدعي أحقيته في امتلاك ما أخذه . وهذا المسوغ هو : التفنن في إخفاء المسروق والمبالغة في ستره حتى ينجو من سرق أو أخذ من إثبات التهمة عليه .

---

(1) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٥ ، ص ١١٣ .
(2) الموشح، ص ١٥٣، ١٥٤ .
(3) يصلت : من أصلت السيف : جرده من غمده فهو مصلت .
(4) الموشح، ص ١٤٧ .

ويروى أبو عبيدة أن ذا الرمة قد استنشده أصحابه قصيدته التي يقول فيها :

أحين أعادت بي تميم نساءها وجُردت تجريد اليماني من الغمد

ومدت بضبعيّ الرباب ودارم وجاشت ورامت من ورائي بنو سعد

فلما أنشدهم قال له الفرزدق : إياك أن يسمعهما منك أحد . فأنا أحق بهما منك، فجعل ذو الرمة يقول : أنشدك الله في شعري فقال : اغرب، فأخذهما الفرزدق، فما يعرفان إلا له، وكف ذو الرمة عنهما"[1] .

ويذكر عمر بن شبة أن سبب تنازل الشعراء عن أشعارهم التي يغتصبها الفرزدق، هو قوة شخصيته وشدة تأثيرها، وخشيتهم من هجائه حيث كان "مهيباً تخافه الشعراء"[2] . ويأتي بمثال صارخ على ذلك فيقول إن الفرزدق مر يوماً بالشمردل اليربوعي وهو ينشد قصيدة حتى بلغ إلى قوله :

وما بين من لم يُعط سمعاً وطاعة وبين تميم غير حزّ الحلاقيم

فقال : والله لتتركن هذا البيت أو لتتركن عرضك، فقال خذه على كره مني، لا بارك الله لك فيه، فجعله الفرزدق في قصيدته التي أولها :

---

[1] الموشح، ص ١٤٩ .
[2] السابق، ص ١٥٠ .

تحن بزوراء المدينة ناقتي حنين عجول تبتغي البوّرائم[1]

ولذلك رأت بعض المصادر أن الأصمعي كان على حق في توجيه النقد إلى الفرزدق لكثرة سرقاته . فقد سرق أبياتاً من "جميل ليفضح رجلاً من أهل المدينة شك في شاعريته . وقيل إن ذا الرمة قال يوماً أبياتاً لها مراد ومعنى بعيد، فأنشدها للفرزدق، فقال : لا تعودن فيها فأنا أحق بها منك، فقال لا أعود فيها ولا أنشدها إلا لك . وكان ذو الرمة يخاف أن يفرك عرضه .

ومر يوماً بابن ميادة، الرماح بن أبرد المري، وهو ينشد في مدح أهله، فسمعه الفرزدق فقال : أما والله يا بن الفارسية لتدعنه لي أو لأنبشن أمك في قبرها، فقال له ابن ميادة : خذه لا بارك الله لك فيه، فأمر الفرزدق راويته أن ينشد البيتين له[2] .

ويبدو أن تكرار إغارة الفرزدق على أشعار غيره من الشعراء قد جعل الأصمعي يقول عنه وهو في موضع المقارنة بين سرقات الفرزدق وجرير :

"تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة . وكان يكابر، وأما جرير فما علمته سرق إلا نصف بيت"[3] .

---

(1) الموشح، ص ١٥٠ .
(2) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي، ج ٢١٢/١ .
(3) السابق، ص ١٤٦ .

ولم يوافق المرزباني على هذا الاتهام واعتبره تحاملاً من الأصمعي على هذا الشاعر لسبب خارج عن الفن الشعري قال : "وهـذا تحامـل شديد من الأصمعي وتقوّل على الفرزدق لهجائه بأهله"[1] . وقـد رأى أن الإنصاف يدعونا إلى القول إن إغارته على بعض الشـعراء فـي أبيات معروفة ومعدودة، لا يجعلنا نطلق هذا الحكم الجائر عليه فندعي – كما صنع الأصمعي – "أن تسعة أعشار شـعره سـرِقة" لأن هـذا محال[2] .

وقد أغار كل من الفرزدق وكثير على بيتين لجميل بن معمر وقـد كشف عن ذلك اتهام كل منهما للآخر، ذلك أن الفرزدق سأل كثيراً : يا أبا صخر : أأنت أنسب العرب؟ حيث تقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

فقال كثير : وأأنت يا أبا فراس أأفخر العرب؟ حيث تقول :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

ويريد الفرزدق من قوله لكثير أن يعرض بسرقته بيت جميـل بـن معمر وهو :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى على كل مرقب

---

[1] السابق، ص ١٤٧ .
[2] السابق، ص ١٥٠ .

ويقصد كثير من رده على الفرزدق أن يعرض بإغـارة الفـرزدق على بيت جميل بنصه " ترى الناس ... إلى آخر البيت" . ومن البـين أن إغارة كثير على بيت جميل ليست كاملة، فهي من نوع "الاهتـدام" حيث غير بعض الشطر الثاني من البيت كما نلاحظ، على حين جاءت إغارة الفرزدق كاملة حين أخذ البيت بنصه لفظاً ومعنى .

ومن كل ما سبق يتبين لنا أن هذه الظاهرة قد شاعت فـي العصـر الأموي كما شاعت بدرجة أقل في العصرين الجاهلي وصدر الإسلام، وأن بعض أشعار الشعراء المحدثين لم تسلم من السرقة الفنية وغيـر الفنية على نحو ما يؤكد ذلك أحد شعراء العصر الأموي وهو الأخطل في قوله : "نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة"[1] .

ومن الطبيعي أن تزيد السرقات وينشط البحث فيهـا فـي العصـر العباسي الذي امتاز على عصـور الأدب جميعـاً بتنـوع ثقافتـه"[2]، واختلاف تجارب شعرائه وتنوعها، وتعرف الأدباء والشـعراء علـى منجزات الأمم الأخرى التي كانت أسبقنا إلى التمدن والتحضر . مثـل الأمم : اليونانية والفارسية، والرومانية، ولما كانت السرقات مرتبطـة

---

(1) الموشح، ص ١٩٢ .
(2) مشكلة السرقات، ص ٤١ .

بالأدب ارتباطاً وثيقاً "فتتسع وتتنوع كلما اتسع الأدب وتنوع"[1] – فإن العصر العباسي قد شهد حركة واسعة من الشعراء تجاه الأعمال الأدبية القديمة والمعاصرة، ونشاطاً زائداً من العلماء بالشعر ونقاده، فحينما أنشد بشار بن برد العقيلي (–٧٦١هـ) قوله :

كأنَّ مثار النقع فوق رءوسهم وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أخذه كلثوم بن عمر العتابي (–٢٠٨هـ) فقال :

تبنى سنابكها من فوق أرؤسهم سقفاً كواكبه البيض المباتير[2]

وقد أخذ بشار بن برد بيت جميل بن معمر[3] :

كأن المحب قصير الجفـــون لطول السهاد ولم تقصر

بأن قال :

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

وقد أخذه العتابي فقال :

في مآقي انقباض عن جفونهما وفي الجفون عن الآماق تقصير[4]

---

[1] السابق ، ص ٤١ .
[2] الشعر والشعراء، ص ٧٦٣ .
[3] ديوانه، تحقيق : د. حسين نصار، مكتبة مصر، ١٩٧٧، ص ١٠٥ .
[4] ابن المعتز : طبقات الشعراء المحدثين، تحقيق : عبد الستار فراج ، دار المعارف، ص ٢٦١ .

وعندما وقع سلم الخاسر (-١٨٦هـ) تلميذ بشار على بيته :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذه وقال :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

يذكر ابن وكيع التنيسي أن بشار بن برد لما سمع هذا البيت قال : "يعمد إلى معاني التي أسهرت فيها ليلي، وأتعبت فيها فكري، فيكسوها لفظاً أخف من لفظي، فيروى شعره ويترك شعري . والله لا أكلت اليوم ولا صمت"[١] . وروى أبو معاذ النميري أن بشاراً لما سمع بيت سلم قال "ذهب والله بيتنا . أما والله لوددت أنه ينتمي في غير ولاء أبي بكر – رضي الله عنه – وأني مغرم ألف دينار محبة مني لهتك عرضه وأعراض مواليه .

قال (أبو معاذ) : فقلت له : ما أخرج هذا القول منك إلا غم ! قال : أجل، فوالله لا طعمت اليوم طعاماً ولا صمت"[٢] .

فالروايتان تعكسان النجاح الذي أصابه "سلم الخاسر" في الإفادة من بيت أستاذه، وتدلان على "مقياس" نقدي ارتكز عليه بشار وهو ينظر

---

[١] ابن وكيع التنيسي : المنصف في نقد الشعر : تحقيق : د. محمد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق ص ١٠ .

[٢] السابق، ص ١٠، الهامش ومشكلة السرقات، ص ٤٢ .

في عمل تلميذه، وهو "التصرف اللفظي في المطروق" . حيث أن سلما الخاسر قد ستر المعنى المأخوذ وغلفه بصياغة أسهل، وبألفاظ أرق . أي أنه أحدث تغييراً جعله أحق بالاختصاص به، وجعل بشاراً نفسه يشهد – رغم الغضب – بذهاب بيته عنه وترديد الناس له .

وقد ذكر الرواة والمتتبعون لشعر أبي نواس (١٣٩ – ١٩٥ أو ١٩٨هـ) عدة أمثلة لسرقاته، فقد بينوا أن قوله[١]

[دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء]

مأخوذ من بيت الأعشى[٢] :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها[٣]

وأن قوله :

[..... كان الشباب مطية الجهل]

مستفاد من بيت النابغة[٤] :

---

[١] ديوانه ، ص ٦

[٢] ديوانه، ص ٢٩ .

[٣] ابن منظور : أخبار أبي نواس ٧٤/١، ويذكر أبو حاتم السجناني (-٢٥٠هـ) أن أبا نواس قد ضمن قصيدته (**دع عنك لومي ... الداء**" أغلب معاني قصيدة الحسين بن الضحاك (-هـ) التي مطلعها :

بدلت من نفحات الورد بالآء ومن صبوحك در الإبل والشاء

(إعجاز القرآن ص ٣٢٢) .

[٤] ديوانه، ص ١٠٩ .

[..... فإن مظنة الجهل الشباب][1]

وإن قوله :

[..... كطلعة الأشمط من جلبابه]

مسبوق بقول أبي النجم (- هـ)

كطلعة الأشمط من كسائه[2]

كما أن المتتبعين لشعر أبي تمام (-٢٣١هـ) قد كشفوا عن طائفة من الإفادات أو السرقات من أشعار السابقين عليه أو المعاصرين له. فقد أورد الصولي أن الشاعر البغدادي دعبل بن علي الخزاعي (-٢٢٠هـ) قد سئل عن أبي تمام فقال : "ثلث شعره سرقة، وثلثه غث، وثلثه صالح"[3]، وثمة رواية أخرى لهذا الحكم ذكرها الآمدي في الموازنة "ثلث شعره محال، وثلثه مسروق، وثلثه صالح"[4] .

وقد زعم دعبل أن أبا تمام كان يسطو على معاني شعره إلى جانب الشعراء الآخرين . قال : "كان يتتبع معاني فيأخذها" فقال له رجل في مجلسه ما من ذلك أعزك الله . قال : قلت :

إن امرءا أسدى إلي بشافع إليه ويرجو الشكر مني لأحمق

---

[1] أخبار أبي نواس، ٧٤/١، وديوانه ص ٦٣١ .
[2] السابق، ٧٥/١ .
[3] أخبار أبي تمام، ص ٢٤٤، والموشح ص ٤٠٤ .
[4] الآمدي، الموازنة ص ١٤ .

شفيعك فاشكر في الحوائج إنه يصونك من مكروهها وهو يخلق

فقال له رجل : فكيف قال أبو تمام ؟ قال :

فلقيت بين يديك حلو عطائه ولقيت بين يدي مر سؤاله

وإذا امرؤ أسدى إلى صنيعة من جاهه فكأنها من ماله

فقال الرجل : أحسن والله ! قال : كذبت . قبحك الله ! قال : والله لئن كان ابتدأ هذا المعنى وتبعته[1] . فما أحسنت، ولئن كان أخذه منك لقد أجاده فصار أولى به منك"[2] .

واتهمه دعبل بسرقة أغلب قصيدة "مكنف أبي سلمى" من ولد زهير ابن أبي سلمى، التي هجا بأبيات منها : ذفافة العبسي، ثم رثاه بعد ذلك بقوله :

أبعد أبي العباس يستعتب الدهر وما بعده للدهر عتبى ولا عذر

ولو عوتب المقدار والدهر بعده لما أعتبا ما أورق السلم النضر

ألا أيها الناعي ذفافة النـــدى تعست وشلت من أناملك العشر

.....

توفيت الآمال بعد ذفافـــة وأصبح في شغل عن السفر السفر

---

[1] وفي رواية أخرى بأخبار أبي تمام "لئن كان أخذ هذا المعنى وتبعه" ص ٣١٨ .
[2] الموشح، ص ٣٦٨ .

يعزون عن ثاو تعزى به العلا ويبكي عليه المجد والبأس والشعر

وما كان إلا مال من قل ماله وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر

ثم قال دعبل : "سرق أبو تمام أكثر هذه القصيدة، فأدخلها في شعره"[1] قاصداً بذلك قصيدته التي رثى فيها محمد بن حميد وأولها :

"كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر"[2]

تفيد هاتان الروايتان أن ثمة مقياسين قد استند إليهما كل من دعبل وجليسه . الأول هو "الإجادة في عرض المعنى المطروق" حتى يحق للمتأخر أو المسبوق أن يدعي ما أخذه ويختص به، يقول الرجل : "ولئن كان أخذه منك لقد أجاده، فصار أولى به منك" . أي أن هذا الاختصاص راجع إلى تنمية المعنى والتوسع فيه، وعرضه بألفاظ مخالفة وقافية مغايرة . والمقياس الثاني هو "ضرورة التغيير في عرض المعنى المأخوذ" وهذا أمر لم يحدثه أبو تمام لأنه – كما بين دعبل – سرق أكثر أبيات مكنف وأدخلها في شعره، ومن ثم لم يكن لأبي تمام حق ادعاء ما أخذ أو الاختصاص به .

وقد كثرت الإفادة في هذا العصر من مصادر عدة منها : "أشعار الجاهليين" والأمثال، وأقوال الفلاسفة، والحكماء، والعبارات المعتادة في المناسبات المختلفة، والقرآن الكريم والأحاديث الشريفة[3] .

---

[1] السابق، ٤٠٤ – ٤٠٥ .
[2] السابق، ص ٤٠٥ .
[3] مشكلة السرقات، ص ٤٦ .

فعلي بن جبلة (١٦٠ – ٢١٣هـ) أخذ من النابغة قوله :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتنأى عنك واسع

فقال :

وما لامرئ حاولته عنك مهرب ولو رفعته في السماء المطالع

بل هارب لا يهتدي لمكانـــه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

فمن البين أن علي بن جبلة قد أفاد من معنى بيت النابغة، ولكنه قد زاد هذا المعنى وتوسع فيه وأشبعه، وهذا أمر يحسب له، ولكنه مع ذلك كان أقل فنية من النابغة، لأنه أورد ما أخذه في بيتين كما نرى .

وقد لاحظ النقاد أن بعض الشعراء مثل أبي العتاهية (١٣٠-٢١٠هـ) يضمن أشعاره الأخبار القديمة، وأقوال المتقدمين من الحكماء والملوك والعظماء، كما يضمنها معاني القرآن الكريم والحديث الشريف فقوله :

وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

أخذه من قول المؤبن لقباذ الملك . فإنه قال في ذلك الوقت : كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس"[1] .

وقوله :

قد لعمري حكيت لي غصص المو ت وحركت كل من سكنا

---

[1] المبرد : الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، ٢٣٩/١ .

أخذه من قول نادب الإسكندر أثناء بكاء من حضر وفاته "حركنا بسكونه"[1] .

وقد اشتمل بعض شعره على آراء الحكماء والفلاسفة فقوله :

يا عجبا للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا

مأخوذ من قولهم "الفكرة مرآة تريك حسنك من قبحك" ومن قول لقمان لابنه : "يا بني : على العاقل أن يخلي نفسه من أربع أوقات . فوقت منها يناجي ربه، ووقت يكسب فيه لمعاشه، ووقت يخلي فيه بين نفسه وبين لذتها ليستعين بذلك على سائر الأوقات"[2] وقوله :

الخير مما ليس يخفى هو المعروف والشر هو المنكر

مأخوذ من قول الرسول (ص) خذ ما عرفت ودع ما أنكرت"[3] وقوله :

ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

أصبح لا يعلم تقدم ما يرجو، ولا تأخير ما يحذر

مأخوذ من قول علي بن أبي طالب "وما ابن آدم والفخر ؟! وإنما أوله نطفة وآخره جيفة، لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه"[4]، كما اشتمل

---

(1) الكامل : ٣٣٩/١، وديوان أبي العتاهية، دار صادر ، بيروت ، ص ٤٩١ – ٤٩٢ .
(2) الكامل : ٢٤٠/١، وديوان أبي العتاهية،ص ١٩٧٨ .
(3) الكامل : ٢٤٠/١، وديوان أبي العتاهية، ص ١٩٧٨ .
(4) الكامل : ٢٤٠/١، ديوان أبي العتاهية، ص ١٧٨ .

بعض شعره أيضاً على معاني القرآن الكريم . فالبيت الثاني من قولـه يمدح المهدي :

أتته الخلافة منقـــادة إليه تجرر أذيالهـــا

ولو رامها أحد غـيره لزلزلت الأرض زلزالها

مأخوذ من الآية الكريمة "إذا زلزلت الأرض زلزالها"[1]

لقد كان اعتقاد هؤلاء الشعراء وغيرهم في أن "المعاني مشـتركة، وأن محل الجمال الفني للصياغة وحدها"[2] ، كان هذا الاعتقاد سبباً في شيوع هذه الظاهرة ونموها . وهو اعتقاد خطـأه العلمـاء والبصـراء بالشعر في زمن لاحق . فيقول الحاتمي "أما قولك إن المعنى يعتلج في الصدر فيخطر للمتقدم تارة، وللمتأخر أخرى وإن الألفاظ مشـتركة – فليس الأمر كما تخيلته، ولا الكلام كله مشـترك، ولا أن الأول لـيس بأولى به من الآخر، ولو كان كذلك لسقطت فضيلة السابق، ولبطلـت مهلة المتقدم، ولما قدمت شعراء الجاهلية على شعراء الإسلام، وقـدم الصدر الأول من الإسلاميين على الصدر الأول من المحدثين – وإنما حكم لهم بالفضل، وسلم إليهم خصله من أجل ما ابتدعوه من المعـاني، وسبقوا إليه من الاستعارات، وابتكروه من التشبيهات الواقعة، والأمثال

---

[1] سورة الزلزلة، الآية رقم (١) .

[2] مشكلة السرقات في النقد العربي، ص ٤٤ .

الشاردة، وذللوه من طرق الشعر الحزنة، ولما تغايروا بالسرق والاجتلاب والنقل والاجتذاب"[1] فيريد الخاتمي بقوله هذا أن يثبت للشعراء المتقدمين وشعراء زمنه الخصوصية الفنية، لأن الكلام معنى ولفظاً ليس جميعه مشتركاً . وإلا لأسقطنا كل الإضافات المتمثلة في المعاني المبتكرة والتصوير الفني المؤثر . فالخصوصية الفنية هي الميزان الذي توزن به الأشعار المتقدمة والأشعار المستفيدة، وقد التفت الشعراء الجاهليون ومن أتى بعدهم إلى أن غياب هذه الخصوصية في أشعار الشعراء يستوجب الذم واللوم والهجاء، ولذلك هجا قراد بن حنش المري، بني عوف بقوله :

وإن نطقوا قالوا بما قيل قبلهم وإن وردوا حلوا خلال الصوادر

وعندما قال كعب بن زهير :

فمن للقوافي شانها من يحوكها إذا ما مضى كعب وفوز جرول

اعترضه مزرد بن ضرار، أخو الشماخ فقال :

مررت على كعب فخلت أوابدي أوابد تعلو فوق كعب وجرول

فهل خضت بحراً قصر الناس دون من الشعر أم هل قلت ما لم تقول[2]

---

[1] الحاتمي : الرسالة الموضحة، تحقيق : د. محمد يوسف نجم ، دار صادر، بيروت، ص ١٩٦٥، ص ١٤٩-١٥٠ .

[2] السابق، ص ١٥٠ .

وعلى أية حال فإن هذه الظاهرة بقدر ما عكست عدداً من المقاييس النقدية التي اتكأ عليهاهذا الناقد أو ذاك عند فحص شعر كل من الآخذ والمأخوذ منه، أو المتأخر والمتقدم – فإنها مثلت شيئاً غير هين من الإضرار بحركة الشعر العباسي وحدَّت من سرعة إيقاعه وتقدمه، ذلك أن "فتنة السرقات قد أخذت تستشري بين الشعراء كلما تقدم الزمن وقل ابتداع الشعراء للمعاني، فأخذوا يدورون حول معاني الأقدمين يعكسونها أو ينقلونها من غرض لآخر، أو يزيدون عليها أو يوشونها بتجنيس رائق أو طرفة من الطرف البديعية الكثيرة"[1] .

---

[1] مشكلة السرقات في النقد العربي، ص ٨٠ .